

من كتب الشرق والغرب

نشر النصوص

ونستطيع في كثير من اليسر أن نفهم سبيلهم ذلك ؛ فقد وصفه العلماء بعدهم ، ووقفوا له الكتب ، وأنشأوا له المحاضرات والدروس ، وخصوه بشهادات معينة يقضى لها الغربي سنوات في مدرسة الآثار، والدراسات العليا ، وقراءة الكتابات القديمة La Paléographie (٤).

فمنهم من يعنى بقراءة النصوص على الحجر ، ومنهم من يأخذ نفسه بقراءتها على الأقمشة ، ومنهم من ينظر إليها في الكتب والأوراق . وكلهم متفقون في أن النص جسم ذو روح يحيا ويموت ويعيش . فإذا بتر منه عضو أو قطع منه عضو استعاده العالم كما كان قبل البتر أو القطع . ونظرة واحدة إلى ما تنشر المعاهد الأجنبية بيننا من كتابات على القبور والمساجد والمحاريب في مجلدات ضخمة متعددة ترشدنا إلى أن هذا العلم قد أخذ حظه من نفوسهم واستمكن من عقولهم (٥)

منذ أربعة قرون أنشأ البابا غريغوريوس في رومة مدرسة لدراسة النصوص العربية ، يختلف إليها رجال الدين يقرءون في رقع قديمة بالية ، وبين أيديهم مقاييس للمساحة يختلفون حيناً ويتفقون حيناً ، فينقاد إليهم الفهم صاغراً طوراً ، وينصرف عنهم غاضباً طوراً . وما هو إلا أن يعودوا إلى النصوص اللاتينية ينظرون كيف تنشر وكيف تقوم حتى يعملوا للعزية ماعمل زملاؤهم للاتينية سواء بسواء . ولم تنفرد رومة وحدها في هذا وإنما تبعتها باريس وڤينة وغيرها من عواصم الغرب ، فأخرجت كتبنا العربية في تحقيق علمي ونشر صحيح . وبين أيدينا « تاريخ ابن العميد (١) » و « كتاب تيمورلنك لابن عربشاه (٢) » و « أمثال لقمان (٣) » ... وغيرها من كتبنا نقرأ التعليقات فيها والحواشي والمقدمات والخواتيم فنذكر دقة العمل وما عرض له العاسلون .

(١) « تاريخ المسلمين للشيخ المكين » طبع مع ترجمة إلى اللاتينية بعناية إربانيوس Erpenius في ليدن ١٦٢٥ .

(٢) « عجائب المقدور في أخبار تيمور » لابن عربشاه الدمشقي ، تصحيح غوليوس Jacob Gollius في ليدن ١٦٣٦ .

(٣) « أمثال لقمان » طبع في ليدن بعناية إربانيوس عام ١٦٥٦ .

(٤) للتوسع في هذه المادة اقرأ : Sylvestre, Paléographie Universelle, Paris 1839-1841.

Chassinat, Paléographie des chartes et des manuscrits du XIe au XVIIe siècle, Paris 1841

(٥) أخص بالذكر ما نشر في مصر عن الكتابات العربية في عدة أجزاء كبيرة :

Van Berchem, Matériaux pour un Corpus inscriptionum arabicarum, Le Caire, IFAO, 1922...

Combe, Sauvaget et Wiet, Répertoire Chronologique d'épigraphie Arabe, Le Caire, IFAO, 1931, 13t.

من قرابة بين النسخ ونسب يرسمون جدولاً يبينون به هذه القرابة وهذا النسب ، وذلك بأن تزيد طائفة منها كلمات في التشيع مثلاً لمذهب أو لحزب ، أو تحذف كلمات من هذا التشيع ، أو تشتد في التعصب للمؤلف أو تغلو في التعصب عليه بالحذف والاضافة .
ودليل الباحثين في ذلك كله موطن الناسخ وتاريخ عصره ومذهبه بالنسبة إلى المؤلف .
فاذا غاب أكثر هذا فالورق جسم ذو روح - كما قدمنا - يدل على حياته باللون أو الغلظ والكثافة ، ويدل المداد على قدمه ، وتدل الكتابة على موطنها من أقطار العربية ، وهكذا يحمي الناشر عاملاً أو عامين أو أعواماً يسائل عن أصل النص وأمه وعشيرته .
فاذا تبين له الأصل والفرع شرع في استقصاء التقارب بينها ، فيرد النص كما كان في حياة المؤلف على وجه التقريب وهو يرسم قاموساً لمفردات العصر ، ومرجعاً لاختلاف المعاني ، فيحدد معلوماته عن القرن نفسه وبيئة المؤلف ذاتها ، فيعزل عن النص ما أضاف إليه الناسخ المتأخر ، ويسنن فيما لا يجد لاثباته نصاً واضحاً .

هذا هو النشر العلمي (٢) Edition critique درجت عليه مدارس الاستشراق منذ أربعة قرون فأخرج أصحابها كثيراً من كتبنا كما أخرج زملاؤهم في اللاتينية واليونانية أو اللغات الأوربية القديمة .
وأكبر الظن أن الناشرين في البلاد

وإني لأذكر في كثير من العجب هذه المحاضرات العملية التي استمعت إليها في باريس ، وبرلين ، وليبزغ (١) وقد نشر المحاضر بين مستمعيه صوراً لتقريب قديم أو لبساط أثرى ، وراح الطلبة يقيسون المقدار الخزوم والمقدار المتبقي في الكتابة وينشئون من جديد رسماً للالقباء التي استعملها الكاتب في تصوير الواو أو الفاء أو الياء مثلاً ، ثم يطبقون ذلك على السطور التي بين أيديهم ، فإذا هم يقرءون النص بمقاييسهم العلمية ، وإذا نحن نعد إلى التخمين أو الظن فنرجع إلى محفوظاتنا في آية استشهد بها الكاتب أو حديث اعتمد عليه المؤلف ، فربما أصبنا وربما أخفقنا ؛ ونحن في كلا الحالين لا نعتمد على علم وإنما على ما يشبه الايمان بقوتنا وقدرتنا في العربية .
وشأننا في نشر الكتب والمخطوطات معهم كشأننا في قراءة سطر أو سطور . فهم حين يهمون بنشر كتاب من الكتب يبحثون أول ما يبحثون عن حياة المؤلف وعن الأوساط التي قرأت له وانتصرت لمذهبه في الأقطار العربية ، ويذهبون في البحث وراء المخطوطات التي انتقلت من هذه الربوع إلى مكاتب أوربة فيرسمون سبيل تنقلها وشجرة نسبها حتى تظهر لأعينهم أم النسخ وبناتها وقريباتها كما بحث أجدادنا العرب في الأنساب والاسناد سواء بسواء .
وهم إذ يتأكدون بعد الفحص الدقيق

(١) رأيت منذ أشهر خلال إقامتي بدير الآباء في «به يرون» Beuron بالألمانيا ، ما يقوم به العالم الأب آبل Pater Abel من قراءة نصين كتب أحدهما فوق الآخر ، فهو يزيل الكتابة التأخرة بنوع من المداد في فحص دقيق وتحضير واسع بحيث لا يمس الكتابة الثانية ، ويقراً كلا من النكتابيتين بعد تصوريهما ، فيستفيد منهما معاً ، وخاصة في دراسة نسخ من الانجيل أو التوراة وقد علق عليها نسخاً أو ما لكون للنسخ .
(٢) في الفرنسية كتاب جدير بالتعريب في مصر وغير مصريلقى ضوءاً على هذا العلم

من مجموع ما في المكتبة التيمورية ودار الكتب المصرية في أقل من ثلاثين جزءاً . وأن يقتصر هذا على نسخ مصر وحدها فيصيب الجزء من الأغاني نسخة وبعض النسخة ، وفي أوربة أجزاء كثيرة منه (١) . فقد رأيت منها في كوبنهاغ ، وفي برلين وفي باريس وليدن ورومة . وهي قديمة في أكثرها ، تصحح النص المتزعزع ، وتكمل الناقص ، وترد إلى الصواب (٢) . وما في الظن أن الفرصة بين الحريين الماضيتين لم تتح جمع هذه النسخ الثمينة ، فقد كان ورود النسخة آنذاك من كوبنهاغ إلى مصر أقرب من وصول مخطوطات القلعة إلى مكتبة باب الخلق .

وثانيهما «أبو العلاء المعري» ؛ فقد حرم الرجل الجدى في حياته وحرمه بعد مماته ، فضاقت أكثر مؤلفاته ، وتفرقت الباقي في خزائن العوالم ؛ ولم يغن الناشرين الأفاضل القراءة والتعليق لأن مخطوطات الشراخ الثلاثة التبريزي والبطلبوسى والخوارزمي ونسخ المتن نسقط الزند في مكبات أوربة قديمة عتيقة أثرية على أكثرها شهادات وساعات حال جد أبي العلاء دون استقصائها واستجلائها ، وقد رأيتها كذلك في زيارتي الأخيرة لمكبات أوربة منذ شهر ، فلم أصبر على تركها في مخابها كما صبرت على «الأغاني»

العربية لن يحسنوا النشر العلمي حتى يقفوا على هذا العلم وقوفاً دقيقاً ؛ فالأدباء العلماء والأساتذة المختصون أدركوا أن اللغة علم يهيا وأن الأدب علم يحضر ، وأن البحث في هذا وذاك ليس من السليقة في شيء وليس من الفطرة في أمر ، ولا يدرك بالمران تحسب وإنما يجب له الطرق العلمية السليمة . ومرد شقائنا في الشرق أننا في كل ظروف حياتنا وألوان عيشنا نخرج على الفطرة ونعتمد على السليقة سواء فينا الممثل والموسيقى والمعلم والتأديب ، في كثير من الغرور الأعمى والاعتداد المسرف .

ولست أغلو حين أقول إننا لم نصنع كثيراً بما يعتمد على العلم في نشر نصوصنا . وسأقتصر على مثليين اثنين هما في كتابين لهما أثرهما وأهميتهما :

أولهما «كتاب الأغاني» ، يعاد طبعه منذ عام ١٩٢٧ ولم يخرج منه أبعد من الجزء الحادى عشر . وقد كان الظن أن ينتهى الجزء في عام كامل على كثرة العاملين في القسم الأدبي بدار الكتب المصرية . ولعل من الخير لأبى الفرج أن لا يفرج عن أجزاءه الباقية قبل أن يجمع الناشر مخطوطاته المتفرقة في أطراف المكتبات العالمية ؛ فليس من الجدى في شيء أن يطبع هذا الكتاب العظيم على اثني عشر مخطوطاً

(١) سأذكر أماكن هذه الأجزاء وعددها في العوالم من غير ذكر أرقامها خوفاً من الاثقال ، فهي ستة أجزاء في باريس ، وخمسة في برلين ، وخمسة في لندن ، واثنان في كبريدج ، وعدة أجزاء في مونيخ ، وجزء في كل من رومة ، وكوبنهاغ ، وفيينا ، والاسكوريال ، والجزائر ، وغوطة . ذلك عدا نسخ استامبول فلم أرها حتى الآن ، وهي كثيرة .

(٢) نشرت مجلة Z.D.M.G. للمستشرقين الألمان في المجلد الخمسين (ص ١٤٥ إلى ١٥١) مقالا للمستشرق فلهاوزن يكمل فيه الجزء الرابع عشر من الأغاني ؛ من طبعة مصر القديمة عدة صفحات ؛ ونشرت غيرها مثل هذا . فالأمل أن يسعى الناشر إلى استيعاب هذا كله ، وسد النقص ورأب الصدع .

مطابعا ، حتى ليخيل إلى أن الناشر يعمد إلى مكتوبة صفراء يريد لها مطبوعة بيضاء ليس غير ؛ يتصرف في تصحيح النص كما يريد عقله ولغته وأسلوبه وفهمه في القرن العشرين ضاربا بالأساليب العلمية عرض الحائط . وسبب ذلك في رأي أن أكثر النقد في صحفنا لا ينظر في الكتب المنشورة إلى أم النسخ وفروعها وشبهاتها وعمر الناسخ وصلة صناعته بالعلم ، وإنما يعرض إلى فتحة سقطت فعدت كسرة ، وسكون انقلب فغدا ضما ، وتقطعة عثت على الرسم وتقلت على الحروف فأصبح المعجم مهملا والمهلل معجبا ، فيخص الناشر بكثير من الكرم في اللوم وكثير من البسطة في التعنيف ، ويرى أن ظلمه للنشر أكثر من رحمة في الجهد . وقديما ألف علماء العربية في التصحيح والتحريف والأغاليط والأشكال كتبا كثيرة كالعسكري والأصبهاني والصفدي والبصري (٢)

وإنما استلبتها من المكتبات على أفلام وصور ، وهأنذا أحلها إلى أصدقائي ناشري أبي العلاء فأرد إلى قيصر ما لقيصر . راجيا أن يبسطوا في ذيل طبعتهم ما في النسخ المجلوبة من زيادات هامة وتصويب وتصحيح ، فهي تسبق نسخهم ستة قرون في الوجود وتفضل عليها بالضبط ، وبذلك يقل الأشكال في طبعتهم ، ويموت الشك في صحة صنعهم . فليس من العلم في شيء أن تقوم طبعة حديثة على إحدى عشرة نسخة لثلاثة شراح ويمتن ؛ وفي العالم منها ما يقرب من السبعين نسخة خطية في المكتبات (١) .

وإذا كنت أبسط هذا للناشرين فاني إنما أقصد إلى أن النشر العلمي لا يتطلب الرجوع إلى القواميس لحسب أو إلى المراجع اللغوية ليس غير ، وإنما يتطلب الرجوع إلى التاريخ وعلم الخط والآثار وفن القراءة ، وذلك فيما أرى غريب على أكثر ما تخرجه

- (١) عرض الناشر في مقدمة الجزء الأول (ص ٥) إلى عدد النسخ التي بين أيديهم . وفي مقدمة الجزء الثاني وصفوا ما وصل إليهم من نسخ بعدها ، ولكنهم لم يعرضوا للاصول التي في العالم على عادة النشر العلمي ، فلم يوازنوا بينها وبين نسخهم التي طبعوا عليها ، مع أن الفهارس ميسرة . فنحن هنا نذكر في إيجاز عددها وأما كن وجودها عونا لأخواننا ومشاركة في إحياء آثار أبي العلاء .
- (أ) نسخ المتن ثلاثون : أربع في برلين ، واثنان في باريس ، واثنان في مدريد ، وأربع في أكسفورد ، وثلاث في لندن ، ومثلها في كوبرول ، واثنان في الفاتيكان ، وأخرى في الموصل ، وكوبنهاغ ، وليدن ، وكبريدج ، وفينة .
- (ب) ونسخ التبريزي أربع عشرة : في كوبنهاغ وليدن واكسفورد وليبزيغ وكبريدج وفينة والموصل ولندن وكوبرول وفيضي باستانبول .
- (ج) ونسخ الخوارزمي عشر : في ليدن وبرلين ولننغراد وبيروت وأيا صوفيا ، ويكي جامع ، ونور عثمانية والموصل .
- (د) ونسخ البطلوسى ست : في أكسفورد والاسكوريال وعاشرو وحامد وفاتح وأياصوفيا .
- (هـ) ووضو السقط أربع نسخ : في لندن وباريس وليدن وكوبرول .
- فالأمل أن يرجع الناشر إلى الفهارس فيصفوا هذه النسخ في خاتمة طبعتهم .
- (٢) وعناوين هذه الكتب هي : «شرح ما يقع فيه التصحيح والتحريف تأليف أبي أحمد الحسن بن عبد الله بن سعيد العسكري» و«التنبيه على حدوث التصحيح تأليف =

أخطائهم وتلقط تصحيهم واستيعاب تحريفهم ،
فصرفوا العمر من غير جدوى ، وأنفقوا الحياة
في أعظم البلوى .

وما أرى كثرة الناقدين في الأقطار العربية
إلا مقلدين تقليداً أعمى لهؤلاء المؤلفين ، لا
ينظرون إلا إلى الحروف كيف ضبطت وإلى
الحركات كيف رسمت وإلى الكلمات كيف
صورت . أفلم يعلموا أن هذا وحده مات مع
الزمن ، وأن اللغة العربية تحتاج معه إلى هذا
العلم الجديد لعلها تنقف في نشر نصوصها
لما نشر الغربيون من آدابهم أو تنافس طبعات
الغربيين لنفائسنا . فليس قليلاً أن نجيا عيالا
عليهم ، نسرق طبعاتهم ونشوه نظامها ، ونبتز
مقدماتها ، ونحذف فهارسها ، ثم ندعى أننا
وحدنا نضبط الحركات ونقوم الكلمات ونحذف
العربية . والله أعلم بما نضع وبما ندع ...

سامي الرفاهة

*

[هبة التمير] : ليس لنا على هذا المقال القيم للدكتور الأديب ، إلا ملاحظة
واحدة يسيرة ، وهي أن علماءنا لم يخطئوا ولم يضلوا فيما بذلوا من جهد لايات ما تورط
فيه الرواة والشراح ، من التصحيف والتحريف وبقده والدلالة عليه .
وكذا أن عمل هؤلاء العلماء لم يغض ، ولا يمكن أن يغض من قدر الأئمة والرواة ،
فعمل الذين يثبتون ما في نشر النصوص حديثاً من تحريف أو تصحيف ، لا يغض ولا
يمكن أن يغض من قدر العلماء الناشرين . والمستشرقون أنفسهم يأخذ بعضهم بعضاً بما
يتورطون فيه من تحريف أو تصحيف . ويكفي أن يرجع الاستاذ إلى ملاحظات الأستاذ
وليم مارسية على نشر كتاب البخلاء الذي قام عليه فان فلو تن .
والانسان يخطئ ويصيب ، والعصمة لله وحده . ولم ينصح لك أحد كالذي يدل على
خطأ تحطه أو غلط تورط فيه . والمهم كل المهم هو أن ينسى العلماء أنفسهم ، ولا يذكروا
إلا العلم وحده وما ينبغي لطلابيه من التماس الحق والصدق والصواب .

== حمزة بن الحسن الأصبهاني » و « تصحيح التصحيف وتحريف تأليف أبي الصفا خليل
ابن أبيك الصفدي » و « التنبيهات على أغاليط الرواة لأبي القاسم علي بن حمزة البصري » .
(١) « تصحيح التصحيف للصفدي » الورقة الأولى من المخطوطة .
(٢) « التنبيه على حدوث التصحيف للأصبهاني » ص ٦٨ من المخطوطة .